مجلة الرائد

العدد : ٢٢٨ الموافق في صفر ١٤٢٢ هجري ٥/٢٠٠١ ميلادي

عنوان المقال : سلطان الثقافة	الكاتب : أ. رشيد أبو أسامة

مفهوم الثقافة

ليس المقصود من الثقافة الرصيد المعرفي المتنوع الذي يتوفر عليه الفرد ، مما يمكنه من إطلاع واسع ومتنوع قد يصطلح عليه بـ "الثقافة العامة" ،ويمنح ذلك الفرد صفة "المثقف"، إنما نقصد بالثقافة في مفهومها الاجتماعي مختلف المكونات المعنوية والنفسية من معتقد وفكر وأعراف وتقاليد ورموز وأحكام مسبقة ومحددات عاطفية، التي تشكلت عبر الأجيال والتي تحكم سلوك الإنسان وتطبع تعامله مع غيره، وطرق تعبيره المختلفة.

ويرى الرئيس البوسني علي عزت بيكوفيتش أن: "الثقافة والحضارة يعبر كل منهما عن عالم قائم بذاته؛ فحامل الثقافة هو الإنسان كفرد، أما حامل الحضارة فهو المجتمع؛ وهدف الثقافة هو اكتساب القوة للتحكم في النفس من خلال العلم، أما هدف الحضارة فهو اكتساب القوة للتحكم في الطبيعة من خلال العلم. فالثقافة موجهة نحو العالم الداخلي للإنسان ، أما الحضارة فموجهة نحو العالم الخارجي ".

فإذا كانت الثقافة محددة لهوية الفرد وسلوكه، والحضارة هي ما ينتجه المجتمع من منطلق ثقافة أفراده ؛ فيندر بالتالي أن تجد إنتاجا بشريا محايدا. وحتى العلوم الحقة، التي تبدوا محايدة، فغالباً ما يكون للخلفية الثقافية دور في توجيه البحث فيها.

وجدير بالذكر أن الثقافة لا تظل مكوناتها ثابتة إلى الأبد، بل إنها تتطور، لكن ببطئ شديد قد يستغرق عدة أجيال؛ علما بأن الاعتقاد الديني كفيل بإحداث تحول نوعي في المنحى الثقافي .

سمات الثقافة الغربية

مما لاشك فيه أن الثقافة التي تسعى إلى بسط هيمنتها على عالم اليوم هي الثقافة الغربية العالمانية ذات الخلفية اليهودية المسيحية المحرفة. ومما لا مراء فيه كذلك أنها ستطبع كل ما سينتج عنها بهذه السمة العالمانية الواضحة :

والعالمانية مميز أساسي لفكر الحداثة ؛ " وترتبط فكرة الحداثة ـ كما يقول آلان توران Alain Touraine بشكل وثيق بالعقلانية بصفتها المبدأ الوحيد لتنظيم الحياة الشخصية والجماعية بربطها بموضوع العلمانية أو الدنيوية(La sécularisation) ، أي فصلها عن الغايات النهائية (..) فالحداثة

تستعبد كل غائية ، وتعني القطع الضروري مع الفكر الديني " .

أما الدكتور عبد الوهاب المسيري فيقول عن العالمانية :"تعرف العلمانية بأنها فصل الدين عن الدولة، وهو تعريف في تصورنا قاصر بحيث لا يصور العلمانية أو عملية العلمنة في كليتها وتركيبها، ويقتصر على الإشارة إلى أوضح جوانبها وأكثرها ظهورا، أي علمنة المجال السياسي. أما المجالات الأكثر عمقا وتأثيرا في حياة الإنسان، فإن هذا التعريف لا يمتد إليها قط و يمكن وصفها [أي العلمانية] بأنها رؤية معرفية أخلاقية مادية محضة، (...) فالإنسان بالنسبة لعلماء الاقتصاد ما هو إلا مجموعة من الحاجات الاستهلاكية التي تشبع ، والقوى التي تتحول إلى طاقة إنتاجية توظف (..) وهو بالنسبة إلى علم النفس : مجموعة من الدوافع النفسية التي تترجم إلى سلوك يمكن تفسيره عن طريق نماذج تحليلية مادية تفترض أنه في نهاية الأمر، جهاز عصبي وغدد وخلايا وغرائز ودوافع بيولوجية (...) لكل هذا لا يجب أن يخضع العقل، من منظور علماني، إلى أي إغراء فيخلع القداسة على أي شيء أو ظاهرة ، بما في ذلك الإنسان (..) فالمعرفة العلمانية : معرفة منفصلة تماما عن أية قيم أخلاقية أو مثالية أو مطلقة، بل وعن أية قيم إنسانية (..)

والعلمنة ثمرة عمليات اجتماعية واقتصادية في غاية التركيب، واضحة واعية وكامنة بنيوية، ينتج عنها تباين بين مؤسسات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وانفصالهما الواحدة عن الأخرى، مما يؤدي إلى تزايد تخصص الوظيفة والدور لتتحرك كل منهما حسب قوانينها الداخلية والذاتية الكامنة فيها، تماما مثل قوانين الطبيعة، أي من دون الرجوع إلى نقطة (دينية أو أخلاقية أو إنسانية) خارج ذاتها (..) وتتضح هذه العملية في أول قطاعين تم تحريرهما من قيد الدين والأخلاق والإنسان ، وهما : القطاع السياسي والاقتصادي. فميكيافيل وهوبز اكتشفا كيف تحول القطاع السياسي (الدولة) إلى قطاع مستقل تماما، لاعن القيم الدينية فحسب، وإنما عن القيم الأخلاقية أيضا. وبعدهما استقلت الفلسفة حيث ظهرت العقلانية التي أقصت كل عقيدة أو إيمان بالغيب أو مركزية خاصة للإنسان في بحثها عن الحقيقة. وتلا ذلك علمنة الأخلاق، حيث سادت الروح العملية " البرجماتية "، والإيمان بأن البقاء للأصلح وأن الدافع الوحيد للسلوك هو حب الذات؛ وتمت علمنة الأسرة والعلاقة بين أعضائها بحيث لا تصير الأسرة وحدة متكاملة وإنما مكونة من عدة وحدات (أفراد) لكل حقوقه المستقلة، ولكل

حريته، ليصير الإنسان الفرد نفسه مادة نافعة، أي وحدة إنتاجية/استهلاكية، ترصد من منظور معدل الإنتاجية والاستهلاكية ومعدلات اللذة والمنفعة. وتتم علمنة الأدب ليستقل عن أية قيم أو مرجعية، وعلمنة الجنس الذي يصبح نشاطا مستقلا عن القيم الأخلاقية وعن النشاطات والأهداف الإنسانية الأخرى (من حب وزواج وإنجاب)، وعن أي إحساس بالذنب أو الخطيئة، ليصبح نشاطا جسديا مستقلا لا يخضع إلا لعاملي اللذة والمنفعة، إذ يمكن توظيفه تجاريا".

ولقد أفرزت هذه العلمانية منطقاً رهيباً ، وصفه ألبيرت جاكار Albert Jaquard بالداروينية الاقتصادية وأورد نماذج منه في كتابه " أتهم النزعة الاقتصادية المنتشية J'accuse le libéralisme triomphant" ، مثل : " يجب على المجتمع البشري أن يتطور، وحتى يستمر في الحياة، يجب عليه أن يقضي بدون شفقة على الذين يقللون من قدرة التكييف الجماعية ، ويجب محاربة كل من يقف في وجه القضاء عليهم، مثل القوانين التي تعمل على مساعدة الفقراء . إن الرأفة ضد قوانين الطبيعة " .

لا يحتاج كل متتبع للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والثقافية في الغرب، إلى عناء كبير، ليرى بصمات هذه العلمنة الرهيبة واضحة للعيان، ويكتشف الوسائل التوجيهية والتربوية المتعددة، المعتمدة لترسيخها، ويقف بالتالي على عواقبها الوخيمة على حياة الناس في الشمال والجنوب على حد سواء.

ويمكننا من خلال هذا التعريف أن نبرز السمات الأساسية للثقافة الغربية العالمانية وكيف انعكست هذه المعاني على علاقة الإنسان الغربي مع محيطيه البشري والمادي، مع المقارنة بنماذج ثقافية أخرى .

تتميز الثقافة الغربية الحداثية العالمانية بالخاصيات التالية:

1 ـ **استبعاد كل غائية** والقطع الضروري مع الفكر الديني؛ غير " أن العلمانية قد لا تكون بالضرورة ، كما يقول د. المسيري ، رؤية إلحادية على مستوى القول، بمعنى أنها لا تنكر وجود الخالق أو القيم المطلقة أو الدين بشكل صريح ومباشر، ولكنها تستبعدهم من عملية المعرفة ومن كل عمليات التعامل مع الواقع ومن عملية صياغة المنظومات الأخلاقية " .

وهنا مكمن خطورتها لأن "عدم الاعتراف بالمقدس، كما يقول " ليسزيك كولاكوفسكي **Leszek Kolakovski** ، يعني عدم الاعتراف بالخطيئة والنقيصة والشر، وبالتالي عدم الاعتراف بحدودنا (..) فالاعتقاد الديني هو وحده الكفيل بوضع حدود للطموحات البشرية وبالمحافظة على المستقبل " .

فكانت المأساة ، التي أحسن التعبير عنها الكاتب خوان كويتيسولو حين قال: " لقد أقصينا حقيقة الموت ومفهوم التعالي من أفقنا ومن حديثنا اليومي، لقد سلبنا الإنسانية جمعاء من رمزيتها ومن عالمها الغيبي الطبيعي. لقد أفضيا باسم تقدم وأوتوبيا بشريين خالصين، إلى مستعمرة الاعتقال التي أنبأنا بها كافكا Kafka ، وإلى نظام عالمي غير مقبول، يقصي من امتيازاته المادية طبقات اجتماعية كاملة ودولا وقارات بكاملها ، دون أن يمنحهم بالمقابل إلا الدمار.

لقد عدنا إلى العالم الطبيعي للظلم والأنانية والقسوة وانتصار القوة " .

وهذا هو الذي سينتج سمات العالمانية الأخرى:

٢- **العنصرية** : المتمثلة عموما في مركزية الرجل الأبيض، واعتبار الإنسان مجرد مادة استعمالية، مثل غيره من الموجودات الحية أو الجامدة التي يمكن أن تستغل خدمة لهوى القوي ومطامعه.

وهذا ما جعل خوان كويتيسولو يقول: " لا توجد أصولية دينية إسلامية، أو هندوسية ، أو يهودية ، أو مسيحية ، أكثر سحقا وتدميراً من تحالف " حرية إجراء التجارب العلمية " والمركب التقني الصناعي والقوة المالية.

إنها أصولية قادرة على أن تجرب بكل برودة أسلحتها القاتلة على عينات إنسانية، ولا يتعلق الأمر فقط بما حصل في مجزرة الخليج، ولكن كذلك، كما اكتشفنا ذلك اليوم بذهول، على المواطنين الأمريكيين الأكثر فقرا والأكثر هلعا، خلال التجارب النووية والكيمائية في الأربعينات والخمسينات والستينات[i]".

و هذا ما سيعطي مبررا فظيعا للخاصية الثالثة المتمثلة في النزوع نحو:

٣- العنف والعدوان والإبادة والهيمنة، وعدم احترام النفس البشرية.

يؤكد سيرج لاتوش في كتابه " تغريب العالم " ، الطبيعة العدوانية لهذا الغرب، حيث يصفه بـ

عنوان المقال : سلطان الثقافة	الكاتب : أ. رشيد أبو أسامة

" الآلة الجهنمية التي تطحن الإنسان والثقافات من أجل أهداف مبهمة ولا معقولة ، مما لا يمكن أن ينتهي إلا بالموت " ويضيف واصفا هذا الغرب : " إنه آلة لا شخصية وبدون روح، استعبدت العالم وأضحت الآن بلا ضابط " ووصفه كذلك بـ " الآلة الهائلة للإنتاج والتدمير " ويقرر في النهاية " أن مغالاة الغرب وجوره يهددان بقاء الحياة البشرية على الأرض " هذا الغرب الذي يعتقد بـ " أن لمن يملك التقنية حقوقا على من لا يملكها " ، هو الذي أباد الملايين من الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ، ودمر الحضارات التي كانت قائمة هناك، واسترق وقتل الملايين من الزنوج الأفارقة، وأنتج العنصرية بعد أن أقام لها أسسا فكرية ، فكانت الفاشية والنازية والصهيونية ؛ ومن الغرب اندلعت الحربان العالميتان ـ أو على الأصح "الأوروبيتان"ـ مخلفة ما بين ٥٠ إلى ٦٠ مليون قتيل ، نصفهم من المدنيين .

ولم يكن ما اقترفه الغرب من مذابح بحق الآخرين مجرد أخطاء لزعماء متهورين أو دمويين ، إنما كان ذلك نتاج ثقافة تُشِّئت عليها أجيال بكاملها . ولو لم تكن الشعوب مهيأة لقبول تلك الإبادات لما تمت على ذلك النطاق الواسع ، ولما طالت حتى أوروبا نفسها على يد النازية. ويرجع فيليب أنجلارد حتى اندلاع الحربين إلى اعتبارات ثقافية، حيث يقول : " لقد أحدثت الحداثة الغربية هوة ثقافية كافية لكي تؤدي إلى إبادة ذاتية كما لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، متمثلة في حربين عالميتين وألوان من الإبادات . ولا تمثل مظاهر العنف الإفريقية مقارنة مع ما حصل في الغرب إلا مجرد لعب للأطفال " .

والعنف حالة واضحة في المجتمع الأمريكي الذي يتم فيه القتل لأبسط سبب.

كتب ريشارد لام مدير مركز السياسات العامة والشؤون المعاصرة بجامعة Denver بالولايات المتحدة في مقال نشر بمجلة "المستقبليين" تحت عنوان **مؤشرات الأفول... وسنن السقوط،** هل دخلت أمريكا في مدار الانحدار ؟ **:** « **إن مجتمعنا يسجل نسبة عالية من الأمية وأعلى مستوى للجريمة في العالم . عليه أن يراجع نفسه وألا يغتر بنزعة شوفينية تخفي في طياتها تلك الحقائق ، إننا نعاني في هذا المجتمع من مشاكل مزمنة منذرة ليست في طريقها إلى الحل أو التحسن وإنما إلى مزيد من التعقيد الخطير** » .

ففي سنة **1989** ، تم إحصاء **21.000** عملية اغتيال على مستوى كل الولايات المتحدة؛ ويقبع في السجون أكثر من مليون أمريكي، كما يوجد أكثر من ثلاثة ملايين تحت الرقابة القضائية.

ورد في حوار مع روبيرت كراين مستشار سابق للرئيس الأمريكي الأسبق نكسون ، أنه يتم في أمريكا إجهاض مليون ونصف مليون طفل سنويا لسبب بسيط هو أن الآباء والأمهات يعتبرونهم مزعجين، وأضاف أن ثلث الأطفال في الولايات المتحدة لا يعرفون آباءهم.

إن احترام النفس البشرية قضية ثقافية ، قد تستبيح القتل لأبسط الأسباب ، أو قد تحترم الحياة إلى أبعد حد.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من المراقبين يرجعون حالة الاقتتال الدائمة في أفغانستان إلى أسباب ثقافية، حيث يتميز الشعب الأفغاني بثقافة الصراع والانفراد بالنصر ، ويتعذر عليه التعامل مع التسويات والحلول الوسطى .

وعن الجزائر كتب Bruno Etienne خبير فرنسي في قضايا الإسلام والمغرب العربي مقالا في مجلة Revue des deux mondes ، يفسر فيه استمرار العنف التي تعرفها البلاد، بأن تقاليد العنف تمتد في الجزائر على مدى قرن ونصف من الزمن

الثقافة والبحث العلمي

ومن الطبيعي أن يكون للنزوع الثقافي نحو الهيمنة والإبادة دور حاسم في توجيه البحث العلمي في الميدان الفيزيائي والكيميائي والبيولوجي، إلى إنتاج سلاح الدمار الشامل، الشيء الذي قد لا نجده عند ثقافات أخرى أميل إلى التعايش مع الغير.

ومن الخاصيات التي ينتجها إلغاء المقدس :

١ـ تحويل الدولة إلى مطلق، لأن الإنسان يحتاج إلى هذا المطلق؛ وهذا ما سينتج الدول القطرية الحديثة التي تهيمن على كل مناحي الحياة ، من خلال نظام الحكومة والوزارات المتخصصة. وهيمنة جهاز الدولة سينعكس حتى على تصميم المدن الذي لا يستجيب بالضرورة إلى مصلحة الناس ؛ فالنزوع إلى هيمنة الدولة يتطلب أن تكون الشوارع عريضة ، حتى تتمكن الآليات العسكرية من الوصول إلى أعماق المدن، الشيء الذي لا يتيسر مع المدن العتيقة، الذي كان شكلها خاضعاً لاعتبارات متعددة منها الاعتبارات الدفاعية.

وتجدر الإشارة إلى أن العمارة الإسلامية في تصميم مدنها وشكل منازلها تختلف عن شكل المدن الحديثة، لأنه خاضعة لما أرساه الإسلام من قيم الحرمة والجوار ومركزية المسجد وموقع السوق .

وفي كل الثقافات يكتسي شكل التجمعات السكنية أهمية كبيرة، قد تؤثر سلبا أو إيجابا على السكان، كما يتضح ذلك من هذا المثال :

" عندما كان كلود ليفي ستراوس Claude Lévi-Strauss يقوم بدراسة حول قبائل البوروورو بإفريقيا، لاحظ أن شكل القرية دائري، وأن هذا الشكل يقوم بدور أساسي في هيكل العلاقات الاجتماعية؛ وإذا ما غاب هذا الشكل الدائري فإن النسيج الاجتماعي للمجموعة سيندثر لا محالة.

وهذا ما حصل بالفعل عند مجيء المنصرين الذين أدركوا بسرعة أن خير وسيلة لتنصير هؤلاء هو دفعهم إلى ترك قراهم وإسكانهم في قرى أخرى تصطف فيها المنازل في خطوط متوازية. وهذا ما كان كفيلا بالقضاء على ثقافة البوروورو لأنه حطم الشكل الأساسي لمعارفهم وانسجامهم وعلاقاتهم الاجتماعية " .

٢ـ التجزيئية ، ففي غياب النظرة الشمولية للكون التي تقتضي وجود مدبر حكيم خلق كل شيء لأمر معلوم، يتجه التفسير العقلاني للوجود إلى إرجاع كل كائن إلى عناصره الأولى، بما في ذلك الإنسان. ولهذه العقلية التجزيئية التي تمثل خاصية الثقافة الغربية انعكاس على مختلف أوجه الفعل الإنساني. وتظهر جلية في ميداني الطب والصيدلة مثلا. فإذا كان الطب الصيني المنبثق عن ثقافة ذات بعد شمولي، يقاوم المرض من خلال معالجته للمريض، بتقوية طاقته الداخلية مثلا، فإن الطب الغربي يتعامل مع المرض بمعزل عن المريض، مركزا على الجزء المصاب، لذا وجدناه طباً عنيفاً، يهتم بمعالجة الأعراض، وغالبا بشكل قاسٍ ، إما من خلال أدوية ذات مفعول قوي فيما يسمى بالعلاج الصادم - le traitement de choc - أو من خلال البتر ـ مثل استئصال اللوزتين أو الزائدة ـ الأمر الذي يندر في الطب الصيني . ونجد الأمر نفسه في ميدان الصيدلة، حيث يميل المنطق الغربي إلى تفكيك الأعشاب الطبية لاستخلاص ما فيها من فيتامينات أو عناصر فاعلة، في حين نجد الطب الصيني والطب الطبيعي عموما يعتمد في الغالب الأعشاب كاملة.

يقول الدكتور جان فالنيت Jean Valnet : " من الواضح أن حبة دواء حمراء أو زرقاء تحتوي على أحد العناصر الفاعلة لعشبة من الأعشاب، لا يمكن أن تتوفر، إلا استثناء، على قوة مماثلة للعنصر الأصلي عند تناوله منقوعاً أو مغلياً أو مطحوناً ... فلا يمكن لعنصر مستخلص من الكل أن يكون إلا ناقصا. فستعوزه دائما مساندة العناصر الأخرى التي تعمل بتنسيق معه والتي فصل عنها بشكل اعتباطي... وقد تحدث بعض العناصر ضررا إذا تم تناولها مستخلصة، في حين تفيد عند تناولها ضمن المادة الأصلية في شكلها الطبيعي، لأن المواد الطبيعية تحتوي في تكوينها على كل العناصر الضرورية لفعلها، حيث تساند العناصر بعضها البعض وتتكامل، ويلطف بعضها ما يمكن أن يكون في بعضها الآخر من قسوة إذا استعملت منفردة " .

وتنعكس هذه العقلية التجزيئية على معاني حقوق الإنسان نفسها. فالثقافة الغربية تتعامل مع الإنسان باعتباره فردا منعزلا، وليس عنصرا في مجموعة مثل الأسرة أو المجتمع؛ لذا جاء الحديث عن الحقوق وليس عن الواجبات.

وإذا أضفنا إلى خاصية الفردانية هذه، خاصية العنف، سنفهم ما ذهب إليه هوبز عندما قال : " بما أن أساس الحق الطبيعي هو حق كل شخص في الدفاع عن شخصه باستعمال كل الوسائل الممكنة، فإن الحالة الطبيعية هي حالة حرب: إن الإنسان هو ـ بحكم طبيعته ـ كائن غير اجتماعي: "الإنسان ذئب بالنسبة للإنسان " .

ولهذا ليست حقوق الإنسان بالمفهوم الغربي إلا حقوق الأقوى سواء كان غربياً أم شرقياً .

في حين نجد الحديث عن حقوق الإنسان يتم في المنظومة الإسلامية بلغة الواجب، وهي أضمن لوصول الحقوق إلى أصحابها.

الثقافة والمجال الحيوي

وللثقافة دور حاسم في تحديد العلاقة مع المجال الحيوي للإنسان. فالثقافة الغربية تعتبر **الطبيعة مجرد خزان ومزبلة؛ خزان لاستخراج الطاقات المتحجرة والمواد الأولية بدون حدود؛ ومزبلة للفضلات . لذا نجدها** تتحدث عن غزو الفضاء وقهر الطبيعة، فلقد انتقل الإنسان الغربي من عبادة الطبيعة إلى استعبادها مع ما ترتب عن ذلك من دمار وأضرار بيئية تهدد الإنسان على وجه الأرض.

ولا نجد نفس الموقف في ثقافات أخرى :

فالإسلام لا يعتبر الطبيعة ملكا للإنسان يفعل فيها ما يريد ، إنما يعتبرها ملكا لله ويجب عليه أن يتصرف فيها وفقا للهدي الرباني ؛ بل يرى المسلم في الكون مسبحا لله تعالى كسائر المؤمنين، وتنشأ بالتالي بين المسلم والطبيعة علاقة أخوة لا علاقة عداوة ، وهذا ما عبر عنه رسول الله ﷺ حين قال مشيراً إلى جبل أحد : " **إنه جبل يحبنا ونحبه** " .

ويؤكد القرآن الكريم أن كل شيء في هذا الكون قد خُلق بقدر ولغاية معينة. ومعنى هذا أن كل نقص أو زيادة في مقادير ونسب المخلوقات الحية منها والجامدة، سيؤدي لا محالة إلى اختلال واضطراب في توازن الكون

واعتبر الإسلام الإفساد في الأرض بمثابة جريمة ضد الإنسانية. يقول تعالى : " **من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً** "

ونفس الموقف من الأرض تقريبا نجده في الثقافة الإفريقية و لدى هنود أمريكا : **يقول الأستاذ جارودي : قال لي صديق إفريقي أسود ذات يوم « *إن الأرض ملِك لمجموعة بشرية ضخمة ، قد مات بعض أعضائها ، ولازال غيرهم على قيد الحياة، وآخرون لم يولدوا بعد. إننا مسؤولون عن كل شيء وعنهم جميعاً* » .**

وأجاب رئيس هندي من منطقة ميلك ريفر Milk River قرب حدود مونتانا، غزاةً كانوا يلحون عليه لتوقيع عقد بيع أرض لتسليم الأراضي قائلا: « ما دامت الشمس تسطع والماء يجري، ستبقى هذه الأرض هنا لتعطي الحياة للناس وللحيوان. أتظنون أن الخالق قد أرسلكم لكي تتصرفوا فينا حسب هواكم... يجب أن تفهموا جيدا سبب حبي للأرض. لم أقل أبدا أن الأرض ملك لي حتى أستغلها حسب رغبتي. لقد وضعت هنا من طرف الإله ولا نستطيع بيعها لأننا لا نملكها » .

*** الجمالية من خاصية الحضارة الإسلامية**

تعتبر الجمالية خاصية تشمل كل أبعاد الحضارة الإسلامية؛ لقد خاطب القرآن العرب من أول آية نزلت إلى آخر آية ختمت، بأجمل مما كان يمثل الجانب الفني عند العرب، ألا وهو الشعر. غير أن

القرآن الكريم رفع هذه الجمالية إلى مستوى الإعجاز؛ ولا زالت جماليته، إلى الآن تشد إليها حتى من لا يتكلم اللغة العربية، وتعجز أبلغ الأدباء.

واعتماد الجمالية في الخطاب القرآني على مستوى البيان، يدل على أهمية هذا المنفذ بالنسبة للنفس البشرية. لذا نجد الإشارة إلى صور الجمال في المحيط الإنساني، متعددة في القرآن الكريم.

وفي الهدى النبوي توجيه واضح للاهتمام الجمالي: عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: " **إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس** " وعن عمر رضي الله عنه قال : " **إني لأحب أن أنظر إلى القارئ أبيض الثياب** " .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **غسل الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من الطيب ما يقدر عليه** » .

وفي الحديث: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه** » .

وكان ﷺ يقول: « **إن الله رفيق ، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف** » والعنف قد يكون في المظهر كما يكون في المضمون. وقال ﷺ : « **يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا** » .

والأصل أن يكون المؤمن حسناً وجميلاً في قوله كله . قال ﷺ : « **ليس المؤمن بالطعان، ولا باللعان ولا بالفاحش، ولا بالبذيء** » ويكون حسناً وجميلاً في أخلاقه ـ قال رسول الله ﷺ : « **أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً** ».

فالجمال خاصية بارزة في الحضارة الإسلامية، تفاعل معها المسلمون، فلم يتركوا مجالا حسيا ولا معنويا إلا واهتموا بجماليته الحسية في الشكل أو الطعم أو الرائحة أو الصوت بقدر ما اهتموا بمنفعته المادية، تلك الجمالية التي لا زالت إلى اليوم تشد إليها المسلم وغير المسلم، فيما خلفه المسلمون من مآثر.

الخلل الثقافي قاتل:

وفي النهاية نشير إلى أن الخلل الثقافي قاتل، قد يودي بأمة بكاملها كما حصل للاتحاد السوفييتي. يقول فيليب أنجلارد : " من الأسباب التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفييتي واندحار الماركسية أنه ما كاد لينين يسلم روحه حتى بدأت الماركسية تتحول إلى عقيدة سوفييتية بدلا من أن تستمر كتجربة ماركسية .لقد صارت الأولوية شيئاً فشيئاً ، للدولة والسلطة لا للمجتمع والجماهير، وللسياسة لا للثقافة، وللمركزية لا للحرية " .

١- _____